المحاضرة الثالثة

النقد الإنطباعي: مفهومه ومجالاته ونماذج من نصوصه:

لا شك أن النقد هو فن دراسة العمل الأدبي لمعرفة جيده من رديئة وذلك بتحليله وتفسيره وتقدير قيمته الفنية.، و قد ظهر عند العرب منذ العصر الجاهلي ، ولكنه كان يدور في فلك " الإنطباعية الخالصة والأحكام الجزئية التي تعتمد المفاضلة بين بيت وبيت أو تمييز البيت المفرد أو إرسال حكم عام في الترجيح بين شاعر وشاعر" .

وعليه فالنقد الإنطباعي أو التأثري كان في المراحل المبكرة للنقد العربي، ويعد من أقدم أنواع النقد ، وهو النقد الذي تتحكم فيه الدوافع الذاتية ، أي إصدارحكم نقدي على ما يسمعه السامع، فيطرب له ويؤثر فيه ، فيكون مرده إلى ما يتركه هذا الكلام من تأثير في النفس و الأحاسيس و العواطف ، فيبدي رأيه في ما سمع بشكل إنفعالي تأثري ، دون تقديم برهان أوتفسير.

وقد وجد هذا النوع من النقد البسيط في العصر الجاهلي ، ولكنه كان يتلاءم مع طبيعة قول الشعر آنذاك ، فالشعر في الجاهلية كان مبعثه الإحساس والعواطف ، وكذلك جاء النقد قائما على الانفعال والإحساس و التأثر "فالعربي حساس رقيق الحس ، تنال الكلمة الطيبة من نفسه، ويهتاج لها اهتياجا ، فإذا حكم على الأدب ، حكم عليه تبعا لتأثره به ، وبه ،وبمقدار ذلك التاثر ، هو يحكم على الأدب ببلاغة الأدب ، ويحكم عليه بالنظرة العجلى ، والاثر السريع ".

مفهوم النقد الإنطباعي:

هو نقد يصدر من شخص تحت تأثير الإنطباعات الأولية السريعة الذوقية أو المزاج الخاص الفردي ،ولم يصدر عن تفكير عميق وتأمل ودراسة معمقة ، كما يكون هذا النقد أحكاما جزئية عامة سريعة غير معللة ، يصف فيها الناقد النص ولا يبين الأسباب التي دفعته إلى ذلك.

ويتميز هذا النوع من النقد بالسذاجة والبساطة والمبالغة في إصدار الأحكام ، لأنه مبني على الانفعال والتأثر والنظرة العجلى ، ولم يبن على قواعد وأسس علمية صحيحة اتفق عليها العلماء.

هذا والمتتبع للنصوص النقدية العربية منذ النشأة يراها " بسيطة ، حيث كان الناقد يعتمد على ذوقه وانطباعه الفطري ، يوجه نقده للشعر في كلمة أو جملة تجاه بيت أو عدة أبيات كانت قد تركت في نفسه أثرا معينا ،لأن الإنطباع البسيط فطري في الإنسان" .

كما نجد هذا النوع من النقد يتجسد في عبارات كثرت في ذلك العصر (بداية النقد) كأن يقول الناقد: هذا أشعر بيت، هذه أجمل قصيدة ، أشعر الجن والإنس... وغيرها.

نماذج من نصوصه :

أ- نماذج نقدية من العصر الجاهلي :

كانت أسواق العرب في الجاهلية وكثرة المجالس الأدبية التي يتذاكرون فيها الشعر، من أهم عوامل نشأة وتطور النقد في العصر الجاهلي ، قد كان ينقد بعضهم بعضا ،وصارت هذه الأحكام فيما بعد نواة للنقد العربي القديم ، ومن أشهر هذه الأسواق" سوق عكاظ " الذي يجعلها ميدانا ملائما كل الملائمة للنشاط النقدي سواء ما يتولاه الجمهور الأدبي أم ما تتولاه بعض الشخصيات الأدبية البارزة ، وفيه يجتمع الشعراء من قبائل عدة فينشرون ما لديهم من شعر، يتلقاه المستمعون بالتعليق والنقد ، ويفد إلى هذه الأسواق علماء بالشعر يتحاكم إليهم الشعراء بجودة قصائدهم ،ومن بينهم النابغة الذبياني الذي كان من أرهف شعراء زمانه ذوقا و أوسعهم أفقا ، إذ كانت تضرب له قبة حمراء من أدم يجلس فيها للحكم بين الشعراء ، والمفاضلة بين أشعارهم ، وقد احتفظت لنا كتب الأدب و النقد من أحكامه النقدية ، ما يمنحنا صورة واضحة عن طبيعة تلك الآراء النقدية في هذا العصر ، وتذكر إحدى الروايات أن الأعشى ميمون بن قيس أنشده طويلته التي أولها :

ما بُكاءُ الكَبيرِ بِالأَطلالِ وَسُؤالي فَهَل تَرُدُّ سُؤالي

ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري :

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضّحى وأسيافنا يقطرنَ من نجدةٍ دما

وَلدْنا بَني العنْقاءِ وابنيْ مُحرِّقٍ فأكرمْ بنا خالاً وأكرمْ بنا ابنما

فقال له النابغة : " إنك شاعر ، لكننك أقللت جفانك و أسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن أنجبك "، فقد عاب عليه استخدام "جفنات" و " أسياف" ، لأنها تفيد القلة ، و الكثير منها يقال له "جفان" و "سيوف " ، وعاب عليه استعمال" الضحى" وكان الأبلغ أن يقول" الدجى" لأن الضيف أكثر ما يكون طروقا بالليل ، كما عاب عليه افتخاره بمن أنجب وليس بمن أنجبوه . وقد قيل إن الخنساء أنشدته في هذا المجلس قصيدتها في رثاء أخيها صخر:

قَذىً بِعَينِكِ أَم بِالعَينِ عُوّار أَم ذَرَفَت إِذ خَلَت مِن أَهلِها الدارُ

فقال لها النابغة : " والله لولا أبا بصير أنشدني آنفا لقلت : أنك أشعر الجن والإنس ، فنرى غضب حسان بن ثابت من تفضيل النابغة للأعشى على سائر الشعراء بما فيهم حسان بن ثابت ، فيقول للنابغة : أنا أشعر منك ومن أبيك ، فيرد عليه النابغة : يابن أخي إنك لا تحسن أن تقول :

فإنّكَ كاللّيلِ الذي هو مُدْرِكي وإنْ خِلْتُ أنّ المُنتأى عنك واسِعِ

فحسن حسان لقوله .

والذي يبدو جليا أنها أحكام انطباعية تتسم بالتعميم ، وبهذا كان التراث النقدي المنسوب إلى العصر الجاهلي يتجه إلى الصياغة والفكرة معا .

ولم يكن الشعر عند النقاد الجاهليين صياغة وفكرة فقط ، بل كان أيضا نظما محكما أو غير محكم ، ومعنى مقبولا أو غير مقبول ، ودار حول الأخطاء اللغوية الجزئية ، ومن هذا

القبيل نقد طرفة بن العبد للمسيب بن علس أو للمتلمس على خلاف في القائل عندما سمعه يقول :

وَقَد أَتَناسى الهَمَّ عِندَ اِحتِضارِهِ بِناجٍ عَلَيهِ الصَيعَرِيَّةُ مُكدَمِ

فقال طرفة بن العبد وهو صبي يلعب مع الصبية : استنوق الجمل ، وضحك منه ، فقال المسيب : يا غلام اذهب إلى أمك بؤيدة ... أي داهية من أنت ؟قال طرفة بن العبد : طرفة بن العبد ، قال المسيب بن علس : ما أشبه الليلة بالبارحة ! يريد ما أشبه بعضكم في الشعر ببعض . وسخرية طرفة من الشاعر لأن الصيعرية سمة الإناث لا الفحول ، والشاعر أخطا في إطلاق صفة الإناث على الذكور من الإبل .

ومن ذلك أيضا الأحكام التي أطلقها ربيعة بن حذار الأسدي على شعر كل من الزبرقان وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي حيث قال: " أما أنت، يقصد الزبرقان فشعرك كلحم أسخن، لا هو أنضج فأكل ولا هو ترك نيئًا فينتفع به، وأما أنت يا عمرو فشعرك كبرود حبر ، يتلالأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر، وأما أنت يا مخبل فشعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر"، وهذا النمط من النقد يعتمد على الذوق و الإنطباع الذاتي دون استقراء أو تحليل لشعر الشعراء ، ويتضح في هذا الحكم النقدي سطوة الذائقة النقدية حيث لا أسس يستند عليها الناقد ولا مبادئ علمية تُفسّر سبب هذا الحكم، كما أنّ الشعراء كانوا يتلقون تلك الأحكام النقدية دون مراجعتها ومتابعتها وكأنّهم يدركون بالفعل مردّها لحكم الذوق الشخصي.

ومن أوائل الأخبار التي رويت عن النقد البلاغي في العصر الجاهلي حكومة أم جندب الطّائية بين امرئ القيس (توفي نحو 544م) وعلقَمة بن عَبَدة الفحل (ت 603م) ،فقد رُوي أنَّ امرأ القيس لما كان عند بني طَئ زوَّجوه منهم أم جندب وبقي عندهم ما شاء الله ، وجَاءهُ يوما علقمة بن عبدة التَّميمي وهُو قاعدٌ في خيمته ، وخلفهُ أم جندب فتذاكرَا الشعر ، فقالَ امرؤ القيس : أنَا أشعرُ منك، وقال علقمة : بل أنَا أشعر منك ، فاحتكما إلى أم جندب

زوجة امرئ القيس في أيهما أشعر، فطلبت منهما أن يقولا شعرا على روي واحد ، وقافية واحدة يصفان فيه الخيل، فأنشداهاجميعا،فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خَليلَيَّ مُرَّا بِى عَلى أُمّ جُنْدَبِ نُقضّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

ثم قال علقمة :

ذَهبتَ منَ الهُجرانِ فِي غَيرِ مَذهَبٍ وَلـم يـكُ حـقّاً كلّ هَذا التَّجَنّب

واستطردَ كلٌّ منهمَا في وصف ناقته وفرسه ، فلما انتهيا تحاكما إليها فحكمت لعلقمة بالجودة والسبق، فقال لها امرؤ القيس : بم فضلت شعره علي شعري ؟ قالت : لأن فرس ابن عبدة أجود من فرسك! قال : وبماذا ؟

قالت : إنك زجرت ، وضربت بسوطك.

وهي تعني قوله في وصف فرسه:

فللساق ألهوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب

أما علقمة فقال:

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

ففرسه أجود من فرسك ؛ لأنه قد أدرك الخيل ثانيا من عنانه من غير أن يضربه بسوط أو يحرك ساقيه ، فقال امرؤ القيس : ما هو بأشعر مني ، ولكنك له وامق ، فطلقها فخلف عليها علقمة ؛ فسمي بذلك الفحل .

هذه القصة من أوائل ما روي من الصور النقدية في العصر الجاهلي بيد أنها لا يمكن أن تدلنا علي النشأة الأولي لهذا الذوق البلاغي – الذي كان سائدا آنذاك – ، لأن هذا الحكم الذي أصدرته أم جندب قد تجاوز مرحلة الذوق الفطري غير المعلل ، فقد عللت أم جندب لحكمها وبينت لماذا فضّلت شعر علقمة علي شعر امرئ القيس، وهذا النقد المعلل ألقى ظلا من الشك على صحة هذه القصة لقربها من صنيع المتأخرين في النقد والموازنة. وبعدها عن النقد الجاهلي المبني على الذوق الفطري الخالي من التعليل .

ولكنَّنا مع ذلك لا نستبعد صُدور مثل هذا النقد عن عربية جاهلية ؛ لأنَّ الحياةَ الأدبية في عصرِ امرئ القيس لم تكن من البساطة إِلى حدّ عدم القدرة على إدارك مثل هذه الملاحظات النَّقدية.

ونستشف من هذا الحكم مدى الاعتماد على الذوق والإحساس ، فأم جندب وقفت في حكمها عند جزئية واحدة من القصيدة ولم تتجاوزها ، وهذا يتفق مع طبيعة النقد في ذلك العصر ، كما يجب أن لا يغيب عنا أن الشعر العربي في العصر الجاهلي قد خطا خطوات كبيرة في مجال التطور إذ قصدت القصائد وثبتت الأوزان ، و أحكم البناء الشعري ، بينما كان النقد مازال يحبو و يسير وئيدا .

هذه الشواهد تدل على وجود صور من النقد الأدبي في العصر الجاهلي ، على أن هناك ما لعله أعمق في تلك الشواهد ، و أبلغ في الدلالة على وجود هذا النقد ، وعلى هذا فما كان النقد الجاهلي أكثر من مآخذ يفاض إليها الشعراء في الشعر ،وما كان اكثر من ملحوظات يلحظها بعضهم على بعض ، وما كان له من الأصل إلا سليقتهم ، وما طبعوا عليه ، كذلك كان النقد قريبا من بعض الأغراض الشعرية في الروح ، فهو كالهجاء حين يعيب ، وكالمذيع حين يثني ، ثم هو بعد ذلك كله عربي النشأة كالشعر لم يتأثر بمؤثرات أجنبية ، ولم يقم إلا على الذوق العربي السليم .

خصائص النقد في العصر الجاهلي :

1- الذاتية : المقصود بها البعد عن الموضوعية ، وناثر الناقد بعوامل خارجة عن النص الأدبي ، وللتدليل على هذه الميزة والسمة نستشهد بنموذج أم جندب ، فقد اتهم امرؤ القيس زوجته بعدم الموضوعية ، و أن حكمها إنما اصدرته لصالح علقمة لتعلقها به وحبها له ، لا لشرعيته و قوة أدبه ،و لعل في زواجها به بعد هذه الحكومة – إن صحت الرواية – ما يقوي الشكوك و ظن امرئ القيس ، وإن أحسنا الظن بالمراة تحت رحمة زوجها في الجاهلية ، فطبيعي أن تخشى على نفسها ممن يعامل ناقته أو فرسه تلك المعاملة .

2- الجزئية : لم يكن النقد يتتبع النص الأدبي كله ، فيبحث في جميع مناحيه ، ويدقق في كل أجزائه و جوانبه ، بل اقتصر على مقابلة بيتين من القصيدتين لا غير .

3- عدم التعليل : أي ان الناقد الجاهلي كان يصدر أحكامه بالاستحسان أو الاستهجان دون أن يلزم نفسه تعليل هذه الأحكام ، وبيان وجه استحسانه أو استهجانه للنص الأدبي ، و لعل من أبرز الأمثلة على ذلك حكومة ربيعة بن حذار الأسدي بين الشعراء الأربعة ، ومنه

مفاضلاتهم وتصنيفاتهم للشعر والشعراء ، وتقديمهم لبعضهم على بعض دون بيان لعلة أو لسبب .

4- الإيجاز : ويتضح ذلك من نقد طرفة بن العبد لشعر المتلمس حينما قال : "استنوق الجمل" ، فهذه عبارة موجزة حملت حكما نقديا عيب به طرفة على شعر المتلمس الذي وصف الجمل بسمة الناقة .

5- تحكم العرف : أي أن العرف والذوق العام ، هو المعلم الرئيسي في النقد الجاهلي ، فكل ما وافق العرف هو حسن ، وكل ما خالفه فهو قبيح ، وكما يقول زهير : " ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا " ، فالشاعر مقيد بأسلوب يتبعه و يقلده .

6- النقد الفطري : وفيه يعتمد على ذوق الشاعر و سلامة سليقته ، حيث لم تكن للنقد أصول معروفة ولا مقاييس مقررة ، بل كان مجرد لمحات ذوقية ونظرات شخصية .

7- تأثير العصبية القبلية : لا شك أن الجو العام الذي كان يسود البيئة العربية و يعمها، سيؤثر حتما في النقد الأدبي ، ولعل أهم ظاهرة اتسم بها هذا العصر هي العصبية القبلية وما صاحبها من تفاخر وتنافر ، ولهذا قال ابن سلام الجمحي :" إن القبائل قد قالت بأهوائها " .

من هنا نستطيع القول أن النقد في العصر الجاهلي ، نشأ بسيطا جزئيا ، غلبت عليه الروح الذاتية .